المصراع

القصة التي نالت جائزة المقتطف الثانية

١

امين باشا هو الرجل ذو الثراء الكبير والمركز الادبي العظيم ، ورث عن اجداده الاسم العريق والمجد الاثيل علاوة على الثروة الطائلة ، وكان شغوفاً سريع التأثر حسن النية . نشأ في مهد العز والدلال ، فشب محروماً من نعمة الشجاعة الحازمة ، التي تصحب من عرك الدهر، وذاق حلوه ومرّه . فكان حذراً الى حدّ الجبن ، متردداً الى حدّ الضعف ، متأنياً الى حد التباطؤ — وهذى ! ومن لا يعرف هدى بنتهُ الوحيدة ومناط آمالهِ ومسرة نفسهِ ، حوت الى الجمال الساحر واللطف الفتان ظرفاً عذباً وأدباً رائعاً وورثت العزيمة القوية عن بيت امها والعواطف الرقيقة عن بيت ابيها فنشأت ثابتة في غير عناد ، حازمة في غير عسف ، مترفعة في غير كبر ، شغوفاً في غير ضعف ....تراها فلا ينفرك منها تعاظل الشرقيات ولا تغريك بها خفة الغربيات . فهي لعوب في حصانة ، طروب في عفاف ، تبهجك منها الابتسامة الملازمة للثغر الشهي ، و يزهيها امامك الصون المسطور على الجبين الجميل فهي من نفس رائيها كأملهِ في الجنة ... حلو .... مقدس

٢

جلال بك هو العظامي الكبير الرجل القوي البأس المرهوب الجانب المطاع الأمر العزيز النفر . ورث عن آبائهِ الاتراك صفات ذلك الشعب الباسل الذي يحسبهُ اعداؤهُ ضعيفاً حتى ليلفوهُ في اكفانهِ و يدرجوهُ في نفسهِ ، فاذا به يمزق من تلك الاكفان ضمائد الجراحه ، و يشتق من ذلك النعش عصياً يدفع بها عن حوضهِ ، واذا به كما كان فتيٌّ قويٌّ ، بينهُ وبين الموت ما بين اعدائهِ واملهم في القضاء عليهِ .... ورث عنهم الارادة حتى ليسير الى غرضهِ و يدهُ في يد المرت — والقسوة حتى ليمزج الخمرة بالدماء — والمجازفة حتى ليقامر على رأسهِ — والتمرد حتى ليضع نفسهُ فوق القدر ..... لا يزال الناس يتهامسون فيما بينهم بقصة زواجه يوم ان لحظ الفتاة (جميلة) فاعجبتهُ فخطبها من ابيها الشريف الفقير فاكبر الرجل الامر وقدّر ان جلالاً بن كمال باشا ما كان ليخطب بنت فقير مثلهُ الاّ لشهوة ساعة لا تلبث ان تمرّ وتتركها بين يديهِ كالثوب البالي يرمى في

مهانة وضعة . فرفض طلب جلال بك وفي المساء التالي كانت جرونة طعمة لنار شبت (قضاء وقدراً) !! . فنصح الناس للرجل الا يتطلع برأسه الصخر فاستسلم ووضع حمامة بين مخالب الصقر وعاش بعد ذلك سنوات عشراً ولم يشهد ما كان ينتظر من اعراض جلال بك عن ابنته . . . لان الذي لا تستطيع ان تجره من عنقه تستطيع ان تقوده من قلبه والذي لا يخفي امام العاصفة يذوب امام العاطفة — اذن فما بين ضلوع جلال بك لم يكن القسوة التي يتحدث عنها اهل اسيوط . ولا الاجرام الذي كان اشجعهم يجسر ان يهمس به لنفسه اذا ادخلهُ سوء الحظ في مسار جلال بك فاخرجتهُ يد جلال محطماً محشماً ، ولا الشهوة التي تختطف العذارى لتعتصر جمالهن ، وتكسر بذلك الرحيق فتحطمهن في نشوتها . . . ولا هو ذلك الطغيان الذي يسير الى غرضه فوق الرقاب ، ويمشي دائماً القصور والقبور غير مكترث ان كان سبيلهُ مفروشاً بالازاهر ام مرشوشاً بالدماء ، كل ما هنالك ان الرجل قوي... قويٌّ في جوره وفي رحمته، جبار في سخطه وفي رضاه، حادٌ في نقمته وفي نعمته ، متطرف في كراهته وفي حبه، فهو فذة من العواطف تضرب في مناكب الارض من ذلك النوع من البشر ذي القامة المتعالية الدقيقة التي تحمل وجهاً أسمر حاداً وشفاهاً رقيقة متضامة وعيوناً غائرة متقدة وجبيناً شريفاً مقطباً ورأساً اشعث مرفوعاً. ذلك النوع الذي يهبط الارض ليحكم الارض ويسير بين الناس ليسود على الناس . وخير ملخص لاخلاق هذا الرجل هو قصة زواجه ففيها النقمة والنار وفيها الحب والسلام ، فيها النفس المهتاجة الغضوب المستبيحة وفيها الروح الوديع الهادي البرئ . واثمر هذا الزواج فتى قصتنا عصاماً

عصام هو ذلك الشاب القوي البنية المتين التركيب الصبيح الوجه ، الراجح العقل، السريع الخاطر الواسع الصدر ، ورث عن ابيه الارادة الحديدية ، وورث عن امه الصبر والرصانة ، فنشأ جماعا .. فيه عُدة القويّ عن ابيه وعُدة الضعيف عن امه وشبَّ عصام ابن ابيه فكان في صباه سيد عشرائه وزعيمهم يقودهم في ألعابهم ويرأس لهم سهراتهم ، وكانت عينا هدى المتجلاوين الجميلتين لا تشبعان من النظر الى عصام وقلبها لا يرتوي من الاعجاب به كما كانت كل اعمال عصام ترمي الى ارضاء هدى واحراز اعجابها — وكثيراً ما كانت تشفع لديه فيمن يولعهم عصيانهم لامره تحت طائلة غضبه ، فكانت تلقي اليه رجاءها باسمة ، فيسرع الى اجابته طروباً . وكثيراً ما كان يعمد الى التظاهر فتدرك حيلته وتعرض ، فلا يلبث تغاضيهُ ان ينقلب غضباً ، وينهال على الولد ضرباً ولكماً ، فتسرع الى الرجاء في اذعان مدل متجنٍ ، ويسرع الى التلبية في غضب متعمر مكبوح ،

وكلاهما معجب بصاحبه، عاطف عليه. وان لم تكن هذه في بذرة الحب فماتكون بذرته ؟؟

ونمت هذه العاطفة المبهمة في ذينك القلبين الصغيرين فاذا بها حبٌّ جبار، لا توهنهُ آلام الفراق، ولا تصدهُ قيود الحجاب

٣

لا حديث للناس الاَّ الترشيحات والانتخابات ولا همَّ لهم الاَّ ما سمعوهُ من ان يوسف افندي بدر الدين مُرشَّح لمزاحم امين باشا في دائرة مركز اسيوط وان جلال بك اكبر الملاَّك في الدائرة وسيد مزارعيها وقائد رأيهم لا يزال متردداً لا يدري الى اي جانب يحاز

وفي مساء ٢٠ يونيو سنة ١٩٢٣ كان جلال بك مدعواً للعشاء في منزل امين باشا وبعد ان فرغا من تناول العشاء انتقلا الى غرفة السهرات وكلٌّ منهما ينتظر ان يكون صاحبهُ البادئ بفتح موضوع الانتخابات وكان جلال بك يحمل قصة النارجيلة وهو متكئ في مقعده وعلى وجهه ملامح فروغ الصبر وكان امين باشا غارقاً في مقعده وعلى وجهه ملامح الجزع والتردد . اخيراً استجمع امين باشا كل ما فيه من قوة ثم قال : ان الطقس في هذه الايام سيء جداً . فقال جلال بك وهو يمج فاهُ بيده ليخفي ابتسامة سخرية كانت تلعب على شفتيه : نعم خاصة لمن هم مثل سعادتك ممن ألفوا ظلال القصور والمكاتب ثم قامت الانتخابات على ساقها فوجدوا انفسهم مضطرين للتجول في القرى والدساكر تحت اشعة الشمس المحرقة وبين الروائح العفنة المتصاعدة

— نعم ... فإن .... نعم ....

نعم ان الامر شاق ولكن مركز سعادتكم الادبي كفيل بتوفير الجانب الاكبر من هذه المشقة واي الناس لا يسرهُ ان تتاح لهُ فرصة ليظهر ودادهُ واعجابهُ بامين باشا

ادامكم الله — انَّا لم يطمعنا في الانتخابات الاَّ ما ذكرتم وثقتنا التامة انكم .... ان عزتكم لا بدَّ معضودنا بنفوذكم في الدائرة .... !

اما نفوذي في الدائرة فامرهُ معلَّق لانك تعلم ان خصمك لم يدخل في الانتخابات الاَّ ارتكاناً على نفوذي في دائرتكما . بل أزعم من ذلك اني قد يخطر ببالي أنا ايضاً ان أزج بنفسي في الانتخابات فأختص نفسي بهذا النفوذ بدل ان ابقيهُ ميداناً لتقاتلك وخصمك. ثم خفض من صوته وقال: ولكن لا يخفى على سعادتك ان المعاملة في تبادل المنفعة

— ان كل ما ملكت يداي تحت مطلق ...

— ان كل ما تملك يداك مكتوب على سلامتك خالد لك بخلودها بأذن الله وليس لي

في شيء من ذلك مطمع الاّ اني يا ابا هدى معجب بفتاتك

— انها ابنتكم على كل حال — اني أريدها زوجة لا ابنة

— ان عصاماً من . . وهنا وثب جلال بك عن مقعده وهو يقول

— عصمت ووُقيت وما حشرّ عصاماً بيننا ؟؟ اني أحدثك عن نفسي لا عن عصام اني اريدها زوجة لي لا لعصام

وكان امين باشا قد وقف وهو ينفض بين يدي هذا الرجل القوي كما تنفض الشجرة الغضة امام العاصفة الهتاكة لكنهُ استجمع بقية جهد مغرق فيهِ وقال

— اني لم افطن الى ما تريد من اول الامر بل ظننت

— دعنا مما ظننت وحدثنا فيما تظن الآن ... ثم طرح جلال طربوشهُ في غضب على طرف مقعده واشار الى رأسهِ وقال

— ايغرك ما انتشر من بياض بين هذا السواد ؟ لا فوالله ما توجّتْ هذه اللمة الاّ عزمة تأكل النار ولا تأكلها النار — وبأساً يغرق البحر ولا يغرقهُ البحر ... ما شاء الله أتراني عجوزاً تمجني الصبايا ؟ ان كانت بنتك تطمع في القوة فانا رجل او في الهمة فأنا بطل أو في الرونق والمندام فانا لست بالدميم الزريّ بل انا . . . انا . . . انا ما ترى ... وليس ما ترى بضئيل . وان كان مطمعها في المال فلأثرنّ الذهب تحت اقدامها حتى ليستوي لديها التراب بالنضار — وان كان في العظمة والنفوذ فوالله لافرشنّ لها بساطاً من رقاب الناس وآماقهم . وان شككت في شيء من هذا فلتسألنّ اباها وهو خير عليم

— تنزه كلامك عن الشك يا بك

— وتنزه كلامك عن المواربة يا باشا ، فما لك تداورني ولا تظفرني بجواب. الامر واضح جلي فانت امين باشا بن ساعي باشا بن عبد الحميد رشيد باشا وانت وانت وانت اما خصمك فهو فتى محام كان يدفع نفقة المدرسة من جيوب المحسنين ، ابوهُ حائك ، وامهُ بنت خائط ثياب فهو حقير زريٌّ لحةً وسدى . ولكنهُ ، والحق على مضاضتهِ يقال ، أحب الى قلوب الناس وأدنى الى اوساطهم واقرب الى عقلياتهم ، فهو ، ان لم تتدخل في الامر عوامل غريبة ، قاهرك لا محالة ، وهادم الصرح الفخم من العزة الذي ابتناهُ اجدادك بجهادهم القرون الطوال ، فانت ترى ان الموقف دقيق والمركز حرج ، لا يحتمل التردد او المطاولة فعجل واختر لنفسك ما يحلو

وقد توالت الحوادث على امين باشا تواليا سريعاً مزعجاً يخالف ما الفهُ من بطء وتأنٍ

فهو الآن مأخوذ مدهوش كالفارس المبتدئ جمح به الجواد الحرون، فتراه مضطرباً مرتاعاً يفتح فاه ليتحدث ، فيأخذ عليه جلال الطريق ، فتبقى كلمة بين شفتيه ، حائرة كالريشة ، مترنحة كالسكران، ميتة كأوراق الخريف ولكن جلالاً قد سدّ عليه حتى طريق التلكؤ ، وزجّ به في مفترق لا بد فيه من الاختيار ، فاما ان يحتمل مرارة الهزيمة ، ويهرب امام فتى وضيع، او ان يضع نفاقه بين ذراعي جلال بك ، وهو في سن أبيها فينسج ثياب زفافها من بياض رأسه ، و يصطنع لشبابها نعشاً من عظام شيخوخته — يا للقدر الظالم

أخيراً فتح امين باشا شفتيه وقال

— ان هذا الشرف .... نعم شرف عظيم ولكني لا بأس من مراجعتها ؟

— مراجعتها !!! مراجعتها !! ما شاء الله ! كأني لا أحدث امين باشا . من هي تلك التي تراجعها ! افتاتك ؟ وان كنت لا تستطيع ان تجعل بنتك التي انت مالئها الحياة تثق بك في اختيار زوج لها ، فكيف تريد ان اغتصب لك ثقة الالوف من الناس؟..... قبل ان تطلب من الناس ان يكونوا سادة خارج منازلهم كن انت اولاً سيداً داخل دارك . — اسمع يا امين باشا . ان الله الذي اطلق الأسد في الغابات ، هو الذي ارسل لها الظباء طرائد واقواتاً — والله الذي خلقنا بحيث ينشأ الابناء بارادة الآباء، بل امعن من ذلك بحيث يقتطع الابن من ابيه ، قصد ان يجعل من الابناء توابع للآباء لا اكثر ولا اقل — والله الذي فرش الارض بساطاً للكسول العاجز ومدّها ميداناً للنشيط القوي قصد ان يجعل بعضنا ارباباً لبعض

بل الا ترى في استوائه ، جل وعلا ، في عرشه ، واستئثاره بالسلطة دونك من اسكنهم الارض والسماء والجحيم، مظهراً رائعاً اخاذاً من مظاهر السلطة والجبروت ؟ ولو شاء الله لما اعجزه ان يجعل الغاب مرتعاً للظباء فقط ، او مقيلاً للآساد فقط ولما ارهقه ان يجعلنا كلنا بشراً متساوين ، لا أبوّة فينا ولا بنوّة ، ولا مقدرة ولا عجز ، بل لما استأثر هو « قدوة الكل وقبلة انظارهم » بعرشه دون خلقه

نظام السيادة سيطر ويسيطر وسيسيطر على الناس، الى ان ترفع الشمس جاذبيتها عن الكواكب ، وتبطل العاصفة غضبها على الاشجار ، وتسحب الكفاءات من النوابغ حتى يستووا مع المجموع الضعيف ، الى ان تسهل العيون حتى يصبح الكل عمياناً كالاعمى ، وتصلّ الاذان حتى يصير الجميع صمّاً كالاصم — ان اتى ذلك الزمن فسيستوي الجميع اما اليوم فالحكم للقوة رغم الالوف وانا متوسم فيك انك لست الرجل الذي يعجزه ان ينتقي

لفتاتهِ الزوج الذي يراهُ اصلح لها ثم يقنعها بقبوله . . . . . انك تستطيع ان تثق ثقة مطلقة انك فائز في الانتخابات لان الامر موقوف كما تعلم بعد ارادة الله على ارادتي

— اني اعلم ذلك حق العلم ، واني مقتنع انك خير زوج لابنتي ، بل انا راضٍ عن زواجك بها ، وان شاء الله بعد ثلاثة ايام ، استطيع ان اخبرك ان الامر في حيز المقضي

— وانا لا اريد احراجك فلنفترق على هذا الاتفاق . ثم وقف ومدّ يدهُ لامين باشا فوضع امين باشا فيها يداً باردة مرتجفة . واستأنف جلال بك حديثهُ ، وهو يشد بيده على يد امين باشا قائلاً بتهلل واقناع — في مثل هذه الساعة بعد ثلاثة ايام ، انتظر ان اسمع منك ما يدلني انك قد اعتزمت ان تفوز على ذلك الصعلوك واني اذكرك للمرة الثانية ان الامر بيد الله وبيدي... السلام عليكم يا باشا . — السلام عليكم يا بك ورحمة الله وبركاتهُ — مع السلامة ....

٤

اصبح امين باشا محطماً من آثار معركة الامس ، وها هو غارق في مقعده معتمداً رأسهُ المكدود بيديه ، مفكراً في فتاتهِ الحلوة ، التي كان يمني نفسهُ ان يزفها الى الشاب الذي يعشقهُ قلبها ، الذي يسد الفراغ الناشئ عن الخرامهِ من نسل الذكور ، الشاب السعيد الذي سينال الى قلب هدى عطف ابيها وبركة روح امها . هذا الشاب الذي كان امين يحبهُ قبل ان يراهُ ، وقبل ان يعرف من هو قد حذف اسمهُ من جدول العائلة قبل ان يكتب وعاد محلهُ فراغاً — وانتزع رسمهُ من خيالات امين الحلوة قبل ان تتحقق تلك الخيالات — وامتلأ محلهُ بالغصة — وكان امين باشا يرتعد وهو يسمع شيئاً في قرارة نفسهِ يصيح فيهِ « ايها المجرم انك لست اهلاً لابوة ذلك الملاك » . . . . . اخيراً رفع رأسهُ ودق الجرس .

— استدع سيدتك هدى

دخلت المليحة في ثوب ابيض فضفاض ، وعلى وجهها ابتسامة ملائكية زادت هدير اللعنة في اذان امين باشا ، وعلا صوت ضميره ينادي « ايها المجرم انك لست اهلاً لابوة ذلك الملاك » . . . . .

ولكن امين باشا اقتطع من ضعفهِ قوة حرك بها اعصاب وجهه بما يشبه الابتسامة ، ثم امسك معصمها واجلسها الى جانبهِ وقبل جبينها قبلة كلها عاطفة ، واستشعرت هي ان في الامر شيئاً غريباً ولكنهُ اعجم عليها . فتح الباشا شفتيهِ في الم خائر وقال

— اني قد انتقيت لك زوجاً ملائماً يا هدى

اجتهدت الفتاة ان تقنع نفسها ان اباها هازل لا جادّ ، ولكنها رغم ذلك ضحكت مرتاعة مذهولة وهي تقول « هذا غريب يا ابتاهُ »

— وهنا جال بخاطر الباشا ان الفتاة تقهقه وهي تتلقى من فم القدر الحكم على روحها بالاعدام فلمَ لا يتجلد هو ايضاً وهو يسمع قاضي الضمير يأمر بتجريد يدهِ من ابوتهِ ....

شجعهُ الفكر ، فاستقوى ، وضغط على اعصابها قائلاً :

— جدي ايتها الشقية الصغيرة فليس ابوك هازلاً . اني قد اخترت لك رجلاً لا كالرجال واسع النفوذ — مرهوب الجانب — طائل الباع وهو فوق كل ذلك حكيم خبير لا تفوتهُ فائتة ولا .....

— يا لله ، يا لله ، كانك تصف لي غراً عجوزاً يا ابتاه لافتى ظريفاً رشيقاً كامين باشا ، حلواً مدللاً كابنتهِ هدى

— نعم — فاني انتقيت لك رجلاً لا مهذاراً ، وزوجاً لادُمية نعم رجلاً ذا ارادة حديدية ، وعزم متوقد كالجمر ، ومهابة رائعة كابطال الخيال ، ونفوذ كبير يملأ العين . رأسهُ مرتفع فوق الرؤوس وصوتهُ مسموع بين الاصوات وهو فوق ذلك ذو رونق وابهة

وقفت هدى ووجهها يلمع ، وعيناها تقدحان شرراً من نفسها الملتهبة ، وصدرها يعلو ويخفض تحت ضغط عواطفها الثائرة . وقالت — الفولاذ قوي ولكني لا احب الفولاذ — والنار متقدة ملتهبة ولكني لا اعشق النار . وقمم الجبال العالية مهيبة رائعة ولكني لا اتزوج قمم الجبال ، والموت نافذ الكلمة مسموع الامر ولكنني امقت الموت — والشفق ذو رونق وبهاء ولكني لا اطمع في الشفق ..... انا لا احب القوة ولا التلهب ولا المهابة ولا الرونق ، ولكني احب حبيبي الذي اختارتهُ روحي وانتقتهُ نفسي ، واحبهُ هو وحدهُ ، احب نقائصهُ قبل فضائلهِ ، واعشق ضعفهُ قبل كمالهِ ، وملءُ الارض من القوة والتلهب والمهابة والنفوذ والرونق لا تستطيع ان تستغويني لارفع بصري عن حبيبي الضعيف الناقص ثانية واحدة لانظر اليها ثم اعود لانغمس في حبهِ ..

ثم رفعت صوتها بحيث تستطيع ان تبين فيهِ نواح الروح . قائلة — انت لا تشتري لي حذائي فلماذا تنتقي لي زوجي ؟ انك لم تلج مقادس روحي فكيف تستطيع ان تعرف اللائق بسكناها ؟

— اسمعي يا ابنتي انك لا تستطيعين ان تجدي زوجاً احسن من الذي انتقيتهُ لك

— على وجه الارض فتيات كثيرات اجمل واعقل والطف من بنتك هدى ، فلمَ

تحب هدى من دونهن ؟ وفي بطن الارض رموس كثيرة في صناديق لذكريات اعطر عن نساء اجمل واكمل ، وربما اعف باير من أمي زوجتك التي اختطفها الموت من بين يديك — فلماذا لا تسكب عصير قلبك الا على قبرها ولا تهتز اوتار روحك الا لذكراها ؟ ذلك لاننا لا نحب الافضل ولكننا نحب الذي نحبهُ

ـ هدى . . هدى ... اقتربي لتنتظم ... حكمي عقلك ...

ـ العقل يحكم في المصلحة والقلب يحكم في الحب ، فموازين عقلي لا تستطيع ان تزن عواطف قلبي كما لا تستطيع عيناك ان تقدر الشذى في النسيم المعطر. هذه قسوة يا ابتاهُ

ـ هدي لا تلوميني اذا رفعت يدي لانك لا تعلمين ان كنت ما ضربك ام باركك ، ولا تصدري حكمك على ما في يدي وهي مطبقة لانك لا تعرفين ان كان ما فيها عقرب ام زهرة ـ ان الزوج الذي اقدمهُ لك يرضيك بلا شك ... هو جلال بك ـ

ـ وثبت هدى على قدميها ثم تهالكت على كرسيها ويدها مبسوطة الى الامام كأنها تدفع بها شرًّا غير منظور وصاحت ـ ابوهُ . ابوهُ . ثم غطت عينيها براحتيها وصاحت « انك تبيعني في سبيل الانتخابات يا ابي »

وهكذا وقعت الضربة في مواطن الضعف ومزقت المدية غشاء الجرح القديم وانتصب لرجل البائس الحزين المتألم مخيلاً كعمود من الدخان ثم سقط متربعاً كنخلة نخرة .... سقط امين باشا مغمياً عليه ...

وثبت هدى عن كرسيها ، وقد ضعفت روحها لانها انقسمت على بعضها ، وتلاشت قوة نفسها لان العاطفة فيها وقعت في وجه العاطفة فقامت البنوة تحارب الحب ، والتضحية تقاوم الثبات ووسط معامع هذا الصراع الهائل كانت الفتاة مشغلة عن روحها وثورتها بجسد ابيها الساقط بين ذراعيها ـ فكانت تصرخ وتصيح وتدق الجرس ييأس وجنون

ـ احضروا المأذون ـ استدعوا جلال بك ـ كلا ـ بل استدعوا الطبيب اولاً ، اذهبوا ايها الخشب المسندة ـ سأتزوجهُ يا ابتاهُ سأتزوجهُ يا ابتي ... يا ابتي ...

فتح امين باشا عينيه وهما اشبه بعيني الغريق الذي يمسك التمثال عما بعيني الآباء ، موارد الرحمة والحب وسمع كلمات هدى الاخيرة « استدعوا المأذون وجلال بك .... سأتزوجهُ يا ابتاهُ سأتزوجهُ » فرفع رأسهُ ومد يدهُ المرتعشة ليباركها كما كان رئيس الكهنة في الماضي يبارك الذبيحة المرفوعة عن خطية الشعب (التتمة في الجزء التالي)

سليم شحاته